أبحاث تمهيدية لدرس فلسفة العرب : ٢

الترجمة والمترجمون

بقلم الخوري يوسف فارس ، من اساتذة كلية القديس يوسف

ما اصدق كلمة فاه بها احد المؤرخين متكلماً عن دور سورية في العالم القديم اذ قال: «كان اهلوها من ممدني العالم وحاملي لواء الحضارة الى الشعوب». وان التاريخ ليكشف لنا الستار عن حقيقة هذا الدور متى تصفحناه ، ووقفنا على حياة ذاك الشعب السوري واعماله الخطيرة في سبيل رقي المعمور وتقدّمه ، وقرأنا تلك السطور الخالدة التي كتبتها يد الزمان اكراماً لمجد اثيل وذكر لا يموت.

فان كان على شواطئ سورية نشأ الشعب الفينيقي الذي حمل الى اطراف الارض ، على شراع تتقاذفه الامواج ويتقلّب مع مهبّ الريح ، ثمرات روحه النشيطة ، وعلّم الامم اساليب الزراعة والصناعة والتجارة ، ووضع تلك الحروف العجيبة التي نجمل منها قوالب لسكب افكارنا ؛ ففي سورية ايضاً عاش مَن كان لهم الفضل في نشر الفكر اليوناني في الشرق ، في حمل ثمرات عقول فريدة الى مدنية لم تحلم بمثلها من قبل. اعني بهؤلاء المترجمين من سريان وغيرهم الذين استقوا عن الاغريق فلسفتهم وعلومهم ، ووضعوها في اللغة السريانية اولاً ثم نقلوها الى العربية ، لغة الاسلام في العصور العباسية. وسوف نلقي نظرة اولى على التراجم السريانية فنتكلم قليلاً عن قيمتها ، ونشير الى اشهر النقلة اليها. ثم ننتقل سريعاً الى ما يهمنا خاصة ، اي الى التراجم العربية التي نحن في صددها.

التراجم السريانية

كانت فتوحات الاسكندر واسطة لتعارف الغرب والشرق ، واحتكاك مدنيتين عريقتين في القدم والتقدّم: حضارة الاغريق التي كانت اذ ذاك في اوج

علاها ، وحضارة شعوب تفتخر بانها مهد الترقي والعمران كالاشوريين ، والفرس ، والهنود ، والسوريين .

لم تكن نتيجة هذا الفتح العظيم منحصرة بان خضع المغلوب صاغراً للغالب مقدماً له الجزية حاني الرأس امام جحافله ، بل دان ايضاً لسطوته المعنوية ومشى تحت شعار مدنيته .

لم يكتف المكدوني المنتصر بان تسيطر بلاده على الاجسام ، لكنه اراد ايضاً ان يمتد تأثيرها الى العقول ، فكان ، كما دعاه التاريخ ، من قادة الفكر البشري .

وبين الشعوب التي اثرت فيها المدنية اليونانية وانصبغت زمناً بحضارتها ، نذكر اولاً سورية . فانها عُرفت منذ البدء بمقدرة غريبة على ان تتمثل كل ما تشاهد فيه غذاء حياتها المادية والروحية . فانها لم تتعرف الى علوم الاغريق ومعارفهم حتى فهمت ما يوسعها ان تكتسب منها ، واخذت بكل نشاط تقتبس دون انفة ولا خجل من منتوجات مشاهير اليونان ، وتدرس على فاتحيها آثارهم النفيسة ، حتى بارتهم او اوشكت ، وغدت بلاد سورية اغريقية ثانية . ومن العلوم التي اخذتها عن اليونان وبرزت بها كانت الفلسفة ، فكان السوريون يشتغلون بهذا النوع مستخدمين لغة اليونان او لغتهم بواسطة المترجمين الذين نقلوا الى السريانية .

ابتدأ عصر ترجمات الفلسفة اليونانية الى اللغة السريانية في القرن الرابع ، وامتدّ الى القرن الثامن .

واول مترجم نعرفه هو بروبوس . فقد كان قسًّا ، يشتغل بصناعة الطب . عاش في اوائل القرن الخامس ، وشرح مؤلفات ارسطو الجدلية ، وكتاب الإساغوجي لفرفوريوس الفيلسوف . واشتهر خاصة اذ ذاك بين المترجمين سرجيوس الذي توفي بعمر سبعين عاماً في القسطنطينية سنة ٥٣٦ ، وكان قسًّا وطبيباً ايضاً علّم في مدرسة الاسكندرية ، وكان لتعاليمه مركز سام . وترجم سرجيوس عن اليونان العلوم الالهية والاخلاقية ، والعلوم الصوفية ، وشيئاً كثيراً من صناعة الطب .

ولم ينطفئ سراج الترجمة والنقل بعد احتلال العرب لسورية بل ظل السوريون متمكنين على الشغل بالعلوم اليونانية وخاصة بالفلسفة . فنشاهد في ذاك الوقت يعقوب الرهاوي يترجم الى اللغة السريانية العلوم الالهية والمنطقية ، فيبادر اليه الطلاب من مسيحيين ومسلمين يبغون الوقوف على اسرار الفلسفة ، فيتساءل برهة هل يُباح للاكليروس ان يعلموا اولاد المسلمين دون ان يخلّوا بالشريعة . وهذا يدلّنا على انتشار وشهرة تعاليمه في سورية .

واما حكمنا على قيمة هذه التراجم فنقدر ان نقول انها مطابقة بالاجمال للاصل اليوناني . نقول « بالاجمال » لأن السوريين لم يحكموا تماماً تلك التراجم على كونهم قد تعمقوا باليونانية ، ووقفوا على اساليبها ، واشتهر منهم فيها كثيرون ، حتى ان القديس يوحنا فم الذهب مثلاً كان يعدّ من أئمتها .

انما الوقوف على اللغة وحده ليس كافياً في مثل هذه العلوم ، بل يجب ايضاً على المترجم ان يكون مطلعاً تمام الاطلاع على عقلية وحياة المؤلف ، وخبيراً بعقيدته الدينية التي لها تأثير مهم في الفلسفة . وهذا لم يتوفر كثيراً للسوريين النصارى الذين كانوا غرباء عن ديانة الاغريق ، وبعيدين عن عقليتهم ومعتقداتهم . لهذا يجب ألّا يأخذنا العجب اذا شاهدنا الفريق الاكبر من النقلة في هذا العصر يخطأون في فهم النصوص اليونانية رغم تبحرهم في هذه اللغة ، او يتركون فراغاً عند عجزهم ، ثم احياناً يجتهدون في ان يملأوا الفراغ من عندياتهم . وبما انهم كانوا نصارى ، ومن الاكليروس ، كانوا يلتجئون بالطبع لسدّ الفراغ الى تعاليم النصرانية والى مؤلفات بطرس وبولس وسائر الكتب المسيحية . وقد كانت تدفعهم احياناً عاطفتهم الدينية وعقيدتهم الراسخة الى تمحيص هذه الفلسفة قبل نقلها الى لغتهم ، فلا يقبلون ما كان فيها مناكفاً للمسيحية او يعطون ما كان وثنياً منها صبغة مسيحية ، غير عابئين للتصحيف والتحريف . فتصبح في تراجمهم الهة الاغريق العديدة الهاً واحداً سرمدياً ، والقدرُ عنايةً الهية ، ويلبسون رداء مسيحياً كل ما يتعلق بالعالم والابدية والخطيئة . وهكذا تطلعنا تآليفهم على فلسفة يونانية في قالب مسيحي .

التراجم العربية

من تصفح تاريخ دول العرب ووقف على فتوحاتهم ودرس آدابهم تأكد ان السوريين في كل هذا يداً قوية وفضلاً لا ينكر. فهم الذين ، في عهد الدولة الاموية ، هذبوا فاتحيهم وصيغوهم بمدنيتهم ، ومشوا في طليعتهم نحو الفتح والاستعمار ، ومرنوهم في فنون الحرب ، وجعلوا من قبائل الغزاة جيوشاً منظمة ودولة مهابة . وقد عرف معاوية فضل السوريين وفهم انهم وحدهم لحريون ان يكونوا اساس مملكة واسعة ودعائم ملك عظيم ، فقربهم اليه واستفاد من خدماتهم الجليلة . فكنت ترى اذ ذاك المهندسين والبنائين وارباب الحروب والبحريين والكتبة والصيارفة واصحاب الدواوين سوريي الجنس حتى ان اهل الجزيرة اخذوا بالتشاغ ، وخافوا على نفوذهم تجاه هذه السيطرة السورية.

وان لم يبقَ للسوريين في الدولة العباسية ذاك النفوذ الذي عرف لهم ايام الامويين ، وان تكن انتقلت عاصمة العرب من سورية الى العراق ، وحلت بغداذ محلّ دمشق الشام ، فرغم كل هذا نرى دور السوريين لم يتلاشَ ، وتأثير مدنيتهم لم يزُل . فقد كانوا حملة العلوم والمعارف الى العرب وناشريها بينهم.

وبين العلوم الدخيلة التي نقلها السوريون للعرب كانت الفلسفة المأخوذة عن الاغريق . فقد عرفوها بواسطة التراجم ؛ وهي ما نبحث فيه اليوم.

تبتدئ التراجم العربية في اوائل القرن الثامن ، اذ اخذ بعض العلماء السوريين ، تحت رعاية وكنف الخلفاء العباسيين ينقلون تآليف اليونان الفلسفية الى العربية ، معرّفين العالم العربي ، الذي كانت تقتصر معارفه على شعره وعلوم لسانه ودينه ، بأرباب الفكر البشري ، بافلاطون الالهي ، بارسطو المعلم الاول ، بزينون ، وفورفيريوس ، بأساتذة المدرسة الاسكندرية وغيرهم من مفكري اليونان.

شعر العرب في الدولة العباسية ان ما عندهم من العلوم لا يكفي ، وان دولتهم العظيمة التي تمتد الى اطراف العالم لم تزل فقيرة محتاجة الى الرقي العلمي

وانها ، مهما تكن عليه من السطوة المادية والبأس ، لا تستطيع ان تنمو وتتقدم اذا كانت متأخرة في القوى العقلية . فقام خلفاؤهم يسدّون هذا العجز الروحي ، باحثين عن علوم يقتبسون منها ، ومعارف يقطفون من اثمارها . فمدوا يدهم اولاً الى جيرانهم من فرس وهنود ، واخذوا عنهم ما عندهم من موائق . لكن ذلك لم يملأ الفراغ ، الى ان ادارو لحاظهم الى بحر زاخر اغناهم عن مؤونة البحث والتفتيش ، فبادروا يستنجدون باعوانهم السوريين ليكشفوا لهم النقاب عن هذه الكنوز الثمينة . ومن كان كالسوريين يحسن نقل هذه العلوم ؟.. مَن غيرهم يعرف اليونانية والسريانية والعربية ليكون وسيطاً بين العقل اليوناني والعربي ؟

كانت في اول القرن الثامن جماهير النقلة تشتغل بالترجمة الى العربية تحت كنف الامراء ، فيجزلون لهم العطايا ويصلونهم بالكثير ، حتى انه يروى ان المأمون امر لابن حنين ثقل ما يكتبه ذهباً . فكان عصر المأمون ، ذاك الامير الذي يصوره لنا التاريخ محاطاً بالشعراء والكتاب جامعاً حواليه الفلاسفة والعلماء مشتغلاً نفسه بالفلسفة ، عصر الترجمة الذهبي . نقلت فيه معظم العلوم الدخيلة عن اليونان وتأصلت الفلسفة في الاسلام .

اما النقلة فلم يكونوا فلاسفة ولا مفكرين ولم يؤلفوا ولم ينشئوا . بل كان السواد الاعظم منهم يتعاطون مهنة الطب التي درسوها على الاغريق . ولما تعمقوا فيها اوصلتهم شهرتهم الى البلاط العباسي ، فقربهم الخلفاء وصاروا اطباءهم الاخصاء . ثم كُلفوا نقل الفلسفة اليونانية الى العربية . قلنا « كُلفوا » ، لانهم لم يكونوا مدفوعين من تلقاء انفسهم الى تعاطي الفلسفة ، بل قاموا في عملهم ، لا حبًّا بالعلم والاستطلاع على اسرار الفلسفة كما فعل السوريون في القرون السالفة ، بل رغبة في الصلات التي لم يكن يبخل بها عليهم الخلفاء .

واول التآليف التي ترجمها هؤلاء الاطباء الى العربية ، بعد كتب بطليموس واقليدوس ، كانت آثار ابوقراط وجالينوس . لانه من الطبيعي ان يبدأوا بتعريف من تساعدهم على فهم صناعتهم .

هذا ، واذا بحثنا عن حياة هؤلاء المترجمين الاطباء ، وعن اسلوبهم في

الترجمة ، فلا نجد في التاريخ سوى معلومات قليلة لا تكفي لسدّ عوزنا الى الاطلاع . فاننا لا نعلم سوى اسماء وحياة بعض مشاهيرهم ، وبعض الكتب التي وضعوها . فيوحنا ابن البطريق قد ترجم عن افلاطون في اوائل القرن التاسع مؤلفه « Timaios » وعن ارسطو كتاب الحيوانات ، ومختصراً لكتابه في علم النفس ، واحد كتبه في العالم . ونقل عبد المسيح الحمصي عن ارسطو كتاب المقالات والالهيات .

اما قسطا بن لوقا البعلبكي الذي عاش في القرن التاسع فقد اخذ عن الاسكندر الافروديسي شروحه لكتب ارسطو ، وتعليقه على مؤلف ارسطو في « الفساد » .

والذي لا شك فيه ان اشهر النقلة كان آل حنين : ابو زيد حنين بن اسحق (٧٧٣–٨٥٣) ؟ رئيس المترجمين ، وابنه اسحق المتوفى سنة ٩١٠ او ٩١١ ، وابن اخته حبيش بن الأعلم . فقد كان لهذه العائلة شهرة واسعة وسمعة بعيدة حتى انه نسب لافرادها شيء كثير ربما لم يكن لهم به يد . وشاع ذكر حنين في ذلك العهد حتى انه لا يكاد يوجد منقول الا ولحنين فيه عمل ما بالتصحيح او بالتهذيب او بالتفسير . وقد رفعه المأمون الى رتبة رئيس المترجمين ، وكان يجزل له الصلات والعطايا ويعهد اليه بمهمات عظيمة . فارسله على ما يزعمون الى بلاد الروم ليأتيه بالكتب الفلسفية . وقد اقر له معاونوه المترجمون بالتفوق وسعة الادراك . وكان جبريل بن بختيشوع يدعوه بلقب « ربن حنين » اي : يا معلمنا حنين .

اما ما نقله آل حنين الى العربية فكثير ، تجاوزوا فيه كل العلوم اذ ذاك . وقد يصعب علينا تمييز التآليف التي وضعها حنين ، والتي الفها ابنه او ابن اخته ، اذ نعلم ان الاب نقل خاصة ما يتعلق بالطب والرياضيات ، والابن ترجم ما يتعلق بالفلسفة . وكان آل حنين يترجمون رأساً عن اليونانية او يصححون التراجم الموجودة ، او يعلقون عليها . وظلّ المترجمون يشتغلون في النقل حتى القرن العاشر . وبين الذين اشتهروا اذ ذاك نذكر ابا بشر متى بن يونس الذي توفي سنة ٩٧٤ ، وابا زكريا يحيى بن علي المنطيقي المتوفى سنة ٩٤٠ ، وابا علي

عيسى بن اسحق بن الحمار الذي تعرف سنة ولادته وهي ٩٤٢.

اما المورد الذي استقى منه هؤلاء المترجمون فانه صار معلوماً انهم لم ينقلوا رأساً عن فلاسفة اليونان المشهورين كافلاطون وارسطو ، بل عن تابعيهم وشارحيهم ومقلديهم ، مثل تعاليم المدرسة الاسكندرية والارسطوطلية المستحدثة ، وعن فرفوريوس وبلوتارخوس . وهم لم يكونوا يميزون بين المعلم الاول نفسه وبين شارحيه ، او يفرقون افلاطون الالهي عن الافلاطونية المستحدثة المصبوغة بشيء من المسيحية . ولا ننفي ان بعضهم قد يكونون تناولوا تراجمهم عن النص اليوناني الاصلي كآل حنين مثلاً ، فاتساع معارفهم وتبحرهم في اليونانية يمكنهم بسهولة ان ينقلوا نقلاً عن الاصل الحقيقي . وجل ما نؤكد ان الفريق الاكبر من النقلة ترجموا الفلسفة الى العربية عن النصوص السريانية التي كان وضعها اسلافهم في العصور الماضية ، وهذا اقرب للتصديق ، لان هذه النصوص كانت مع وفرتها سهلة المنال.

يدلّ على هذا انه عندما نقابل مثلاً بين ما ينسبه الاسلام الى افلاطون او ارسطو وبين تآليف هؤلاء في اليونانية نجد ، مع المطابقة الكثيرة ، بعض المناقضة التي تبدو لنا بعينها في الافلاطونية والارسطاطالية المستحدثة او شروح ارسطو وافلاطون بقلم من اتى بعدهم من الفلاسفة . مما يؤكد لنا ان التراجم لم تؤخذ عن مصدر يوناني.

قبل ان نحكم على هذه التراجم ونفهم قيمتها متسائلين هل اجاد اصحابها النقل واحسنوا في تعريب الفلسفة ، قبل ان نطنب في الكلام على علو كعبهم واجادتهم او نذهب في مغالاة ممكوسة ونحط من قيمة عملهم ، لنتنبه الى امور خطيرة ، الى نقط هامة لا بد للناقد ان يفطن اليها قبل اعطائه الحكم النهائي :

اولاً : ان النقلة لم يكونوا فلاسفة ، كما سبق القول ، ولم يشتغلوا بها رغبة في الشهرة والاطلاع ، بل حباً او بالكسب وارضاء لخاطر الامراء.

ثانياً : ان الاصول السريانية التي اخذوا عنها لم تكن تخلو من اغلاط الفهم ، والنقلة اخذوها كما هي دون تنقيح او تصليح.

ثم ان هؤلاء الاطباء المترجمين لم توقفهم صعوبة الترجمة ، ولم يطلوا ما تعذر عليهم فهمه ، بل اكتفوا بما ظهر لهم من المعنى لاول وهلة ، فعبروا عنه باللغة العربية غير عابئين احياناً بالمطابقة الدقيقة . وقد اشرنا الى مهمة اسحق بن حنين في تنقيح وتصحيح مثل هذه التراجم .

ورب من يسأل هل بقي شيء من تلك التراجم ؟ فنجيب ان يد الضياع قد اخذت باكثرها . ولا شك ان العرب انفسهم لم يحافظوا عليها ، بعد استخدامها واستغنائهم عنها بشروحهم وتآليفهم .

فالكثرة المطلقة من تلك الآثار قد بادت ، ولم يبق الّا القليل . من ذلك مقالة لقسطا بن لوقا في الفرق بين الروح والنفس يقول فيها ان الروح مادة مفارقة ، مركزها في البطن الشمالي من القلب ، وهي التي تحيي الجسم البشري وتجعله يتحرك ويشعر ، وهذه الروح تتلاشى مع فناء الانسان . اما النفس فبسيطة وغير معرضة للتغير ولا تفنى عند فنائه ، ومن مزاياها ان تكون بوقت واحد افعالاً متناقضة تمام التناقض ، وان الروح هو الوسيط بين النفس والجسم وسبب تحرك وشعور هذا .

ومن العجب في تاريخ النقلة الاطباء انه رغم الحياة التي عاشوها في بلاط الخلفاء ، ورغم الاكرام الذي حفوا به والعطايا التي اجزلت لهم ، ظلوا على عوائدهم وتقاليدهم محافظين ، ومكثوا في ايمانهم وديانتهم ثابتين . ولا شك ان الخلفاء قبل المأمون وبعده اجتهدوا ان يحملوهم على اعتناق الاسلام . ولكنهم لم يتزحزحوا عن عقيدتهم ولم يشركوا قط بمسيحيتهم ومن طريف ما يروى من هذا القبيل ان المنصور الحّ يوماً على ابن جبريل كي يدين بدين الرسول ، فاجابه معتذراً : « افضل ان اموت على دين آبائي واجدادي . وحيث هم يطيب لي ان اكون ان في الجنة وان في النار » . فضحك الامير وسكت .

هكذا عاش بسذاجة كلية وايمان راسخ متين ، في بلاط خلفاء الاسلام ، هؤلاء الوسطاء بين عقول الغرب والشرق ، واولئك النقلة الاطباء الذين حملوا الى العالم الاسلامي قبساً غدا نوراً بهيّاً ، ونفخوا في مدنيته روحاً انعشتها واسرت في عروقها الحياة .